محمد إلهامي | نشر في ٣٠ مارس ٢٠١٥,

# رحلة الاستشراق – لماذا ظل الاستشراق معاديًا للإسلام؟

وُلد الاستشراق من رحم المواجهة الأولى بين الإسلام والغرب، وعاش طفولته في عصر الحروب الصليبية، ونضج واشتد ساعده في عصر النهضة والاستعمار الغربي، وفي هذه المرحلة كانت كتب المستشرقين ودراساتهم نماذج شاهدة على جودة البحث العلمي ودليلا على الجهد الكبير المبذول في موضوع الدراسة.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال طبيعي: إذا كان الاستشراق عملاً علميًا، وإذا كان المستشرقون قد استطاعوا الوصول إلى المصادر الأصلية ولم يعودوا يعانون صعوبة التواصل مع المسلمين، فلماذا لم تتحسن صورة الإسلام في الغرب؟! ولماذا خرجت أغلب الكتابات الاستشراقية تنقل صورة شائهة عن المسلمين؟!

وجدنا في نص قديم يرجع إلى الربع الأول من القرن السابع عشر أن من بين علماء النصارى في فرنسا من يعلن "المسلمون أعطاهم الله عقولاً وافرة"[1]، إلا أن هذا إنما كان في سياق مجادلة، ثم هو بعد ذلك لم يتردد ولم يتسرب إلى العامة أبدًا، بل هو لم ينتشر بين العلماء والمستشرقين، وسيلاحظ "أي باحث موضوعي أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحًا مباشرًا وعنيفًا أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية"[2]. وحتى في حمأة الدفاع عن الغرب يُقرُّ مؤلفان غربيان بأن "بعض ضروب التحامل الاستشراقية لا ترى في الشعوب غير الغربية تلك الكائنات البشرية الراشدة، فعقولهم عقول أطفال، ويُمكن أن يُعاملوا تاليًا على أنهم سلالات أدنى"[3].

إنه السبب القديم المقيم: العلم في خدمة السياسة! فالسلطة التي تدعم العلوم وأهلها لا تنتظر منهم بطبيعة الحال أن يخرجوا بنتائج تضاد وتناقض مصالحها ومطامحها، ولذلك "يمكن القول بموضوعية كاملة إن "علم الإسلاميات" ولد في أحشاء المخططات الاستعمارية"[4]، ولم يكن يستطيع إلا أن يكون ابنًا بارًا ومطيعًا!

ولذلك سنجد في عهد نضوج الاستشراق نفس الكلام الذي قيل قبل أن تبدأ الدراسات العلمية، ففي (1697م) ظهر بارتلمي ديربيلو، الذي ألف "المكتبة الشرقية" وهو المؤلف الذي يوصف بأنه دائرة المعارف الإسلامية الأولى، واستعان فيه بمصادر عربية وتركية وفارسية وبذل جهدًا كبيرًا لإزالة الأفكار الخاطئة المتراكمة عند المسيحيين، وكان طبيعيًا أن يخرج هذا العمل بروح إيجابية ملموسة، ولكنه برغم هذا يقول: "هذا هو الدجال الشهير محمد، صاحب ومؤلف بدعة اكتسبت اسم الدين ونسميها المذهب المحمدي، وقد نسب المسلمون إلى هذا الكاذب جميع الفضائل التي ينسبها الآريون أو البوليسيون أو المتشبهون بهم وغيرهم من دعاة البدع إلى يسوع المسيح وإن كانوا ينزعون عنه صفة القداسة"، وفي نفس العام ظهر كتاب "محمد: طبيعة الدجل الحقيقية" للإنجليزي همفري بريدو الذي يقول بأن الإسلام هو نموذج واضح لمستوى البلاهة التي يمكن أن يصل إليها أي دين، ويجب أن نتذكر أننا في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر أي أن عصر التنوير قد بدأ منذ زمن، يقول عن النبي: "كان الشطر الأول من حياته يتسم بالإباحية الشديدة والآثام البالغة، وكان يجد متعة كبيرة في السلب والنهب وإهراق الدم، تملكته صفتان: الطموح والشهوة، فتشييد مملكته يدل على الأولى وتعدد زوجاته يدل على الثانية، وكل سورة في القرآن لا تخلو من قانون للحرب وإهراق الدماء، كما لا تخلو من إباحة التمتع بالنساء في الدنيا وكذلك في الآخرة"[5].

وانطلاقًا من أن العلم إنما كان في خدمة المصالح والمطامح والمطامع، يرى إدوارد سعيد أن "القيمة الكبرى للاستشراق تكمن في كونه دليلاً على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه خطابًا صادقًا حول الشرق (وهو ما يزعمه الاستشراق في صورته الأكاديمية أو البحثية) ومع ذلك فعلينا أن نحترم ونحاول أن ندرك ما يتسم به خطاب الاستشراق من قوة متماسكة متلاحمة الوشائج، والروابط الوثيقة إلى أبعد حد بينه وبين المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمنحه القوة، وقدرته الفائقة على الاستمرار، وعلى كل حال، فإن أي مذهب فكري يستطيع الصمود دون تغيير، واستمرار التمتع بمنزلة العلم الذي يتعلمه الناس (في المعاهد التعليمية والكتب والمؤتمرات والجامعات ومعاهد تخريج العاملين بوزارة الخارجية) منذ عصر إرنست رينان في فرنسا في أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة، لابد أن يكون أقوى من مجموعة من الأكاذيب وحسب، وليس الاستشراق إذن خيالاً أوروبيًا متوهمًا عن الشرق، بل إنه كيان له وجوده النظري والعملي، وقد أنشأه من أنشأه، واستُثمِرَت فيه استثمارات مادية كبيرة على مرّ أجيال عديدة[6]. وقد أدى استمرار الاستثمار إلى أن أصبح الاستشراق، باعتباره مذهبا معرفيا عن الشرق، شبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين، مثلما أدى تكاثر ذلك الاستمرار نفسه، بل وتحوله إلى مصدر حقيقي للإنتاج والكسب، إلى تكاثر الأقوال والأفكار التي تتسرب من الاستشراق إلى الثقافة العامة"[7].

ومن ثم فليس غريبًا أن يذهب البعض إلى القول بأن الاستشراق "لم يفعل شيئًا مهمًا، اللهم إلا أنه أضفى صبغة علمية على الأضاليل القديمة، والخرافات والقوالب النمطية الغربية العتيقة عن الإسلام"[8].

لكن أمرًا مهمًا يجب أن ننتبه إليه، ونعترف به بمقتضى العدل والإنصاف، ذلك أن نضوج الاستشراق وتقيده بالتقاليد العلمية أسفر عن كثير من المراجعات في صفوف المستشرقين، فظهرت كثير من الكتابات والدراسات المنصفة، وصدر عن كثير من المستشرقين مدح وافر وثناء جميل على الإسلام

ونبيه وحضارته وأثره، واعترف كثير منهم بفضل الإسلام على الإنسانية وفضل الحضارة الإسلامية على مناحي التقدم العلمي والأدبي، كما واعترف بعض المستشرقين أن تيار الاستشراق عاجز عن الوصول إلى دراسة كافية وحقيقية عن الإسلام، ونادى بأن يتصدى المسلمون لذلك فهم أهله وأولى به[9].

إلا أن التيار العام للاستشراق ظل وفيًا للأطماع الغربية ويعمل في خدمتها، والسؤال الآن: كيف يستطيع الاستشراق – وهو يزعم العلمية والموضوعية والتقصي – أن يمارس ذات دور التشويه والتجهيل والكذب في عصر ثورة الإعلام والاتصالات؟!

هذا ما نتناوله في المقال القادم إن شاء الله تعالى.

———————————

[1] أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي ص 85.

[2] أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص 91.

[3] إيان بوروما ومرجليت أفيشاي: الاستغراب ص 22.

[4] أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص 90.

[5] كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص 55، 56.

[6] انظر مثلاً: د. مازن مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب ص 14 وما بعدها.

[7] إدوارد سعيد: الاستشراق ص 50.

[8] أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص 91.

[9] قال المستشرق آربري للدكتور مصطفى السباعي: "إنّنا – نحن المستشرقون – نقعُ في أخطاء كثيرة في بُحُوثنا عن الإسلام، ومن الواجب ألا نخوضَ في هذا الميدان؛ لأنّكم – أنتم المسلمون – العرب أقدرُ مَنّا على الخوض في هذه الأبحاث"، وقال المستشرق الألماني شوديل يقول: "ما الذي يمكن أن نعلمه لتلاميذنا العرب في مسألة منهج الإنتاج العلمي؟ إنهم يلمون بذلك أحسن منا".

د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص 29.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/6067/